

الشعب هو المسئول عن الإصلاح الاجتماعي للدكتور زكي مبارك

أخي الأستاذ الزيات

ليتك شهدت المناظرة التي أقيمت بكلية الآداب في مساء الأحد الماضي ، لترى مبلغ ما وصلنا إليه من حرية الفكر والرأي ، ولترى كيف يستبجح ناسٌ إيذاء إخوانهم بلا استبقاء ، ولترى أيضاً كيف تظنّي العامية الفكرية على بعض من وُسموا بالتثقيف

وسأصف جوّ تلك المناظرة بإيجاز ، أداء لحق « الرسالة » ، فمن قرائها أوفى يحبون أن يعرفوا كيف يشتجر القاهريون في ميادين الحجج والبراهين

كانت المناظرة برئاسة معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية ، وقد سُبِّحت بحفلة شاي أعدها عميد كلية الآداب ترحيباً بالوزير وبالتناظرين وكبار المدعوين وبعد الشاي رأينا الوزير ينتحي ناحية ليراجع خطبة طويلة متصلة بموضوع المناظرة ، فمرفت أننا سنقضي شطراً من الليل في نقاش وجدال ، وقد همت بمراجعة الوزير ، ثم تركت الأمور تجري إلى مداها المرسوم في ضمير القريب

وحين وصلنا إلى المدرّج الأكبر بالكلية رأينا جماهير كثيرة وعابنا فيظنّ قد اقتُبست ناره من وهج القلوب ... ألقى العميد كلمة ترحيب بالوزير ، وألقى أحد الطلبة كلمة ثانية ، ورأى الوزير أن يطوى خطبته لضيق الوقت ، ثم دعا التناظرين إلى الكلام

كنت الخطيب الأول ، وكانت خطبتي مكتوبة ، ولكنني رأيت الجوّ يوجب أن أعرض الموضوع بصورة خطابية ، وفي دقائق ، لأسبقني الفرصة الباقية ، فرصة المنبر الأكبر على صفحات « الرسالة » الصديق

لن أحدثك عما قبلت به خطبتي من الإعجاب ، وإنما

أحدثك عن مناظر قصر خطبته على مناوشتي بأساليب يمجّها الذوق ، مع أن المناظرة في كلية الآداب ، وبرئاسة وزير الشؤون الاجتماعية !

حضر هذا المناظر وفي قلبه أشياء ، فهو لن ينسى أني أُلحمت منذ عامين في محاضرة ألقاها بأحد الأندية تأييداً لفكرة وهمية نبئت في بعض خرائب الروس ، وهو لا يستطيع نشر تلك المحاضرة بأي حال ، لأنها من صنوف البهتان

كان الظن أن يتناسى حضرة المناظر تلك الحركة الأدبية ، وأن يجعل همه الأول والآخر في شرح الرأي الذي ارتضاه في مناظرة ذلك المساء ، ولكنه جعل همه في التجريح بالدكتور زكي مبارك وتأليب الجمهور عليه بطريقة عدّها الحاضرون ضرباً من التحدى المعقوت

ليست المناظرة قتالاً بين شخص وشخص ، وإنما هي نضال بين رأي ورأي ، وليست المناظرة فرصة للتشفي ، وإنما هي فرصة للتصافي

أترك هذا وأذكر أني أُعجبت في ذلك المساء بخطيبين مجداً الفكر والرأي ، أحدهما الأستاذ صالح جودت ، وثانيهما الأستاذ حسين دياب ، ومع أنها جرياً في ميدانين متعارضين فقد استطاعا الظفر بالحد والثناء

قال صالح : إن اعتماد الشعب على الحكومة تحوّل إلى طمع في الحكومة . وهذه فكرة دقيقة جداً

وقال صالح أيضاً : إن الذين يقيمون الحفلات الخيرية لمعونة الفقراء لا يفتحون مغاليق الجيوب إلا بفضل المراقص المسبوقة بأكواب الصبباء

وهذا كلامٌ يجب أن يقال . ولو مرة واحدة ، عساه ينفع بعض الجمعيات

وقال حسين : إن الحكومة هي التي تُسأل عن الإصلاح الاجتماعي ، لأن عندها وسائل يعجز عن مثلها الشعب ... وقال أيضاً : إن يقظة الحكومة لا تنفي الشعب عن الاهتمام بما يجب عليه في تدبير أمور الماش ... وهذا وذاك من الكلام التنفيس أما لغة التناظرين فكانت سليمة ، بغض النظر عن اللحن المضحك ، اللحن الذي تكرر ثم تكرر من الخطيب اللحان ، وهو فلان !

عندى أن الشب طفل لا يفرق بين التمرة والجرة ، على نحو ما كانت الحال في طفولة الشعوب
أما اليوم وقد اكتملت قوى الشعب وتخطى اليهود الفطرية
فن الواجب أن يُسأل عن كل شيء ، وأن يكون إليه الأمر
في جميع الشؤون

وما السبب في إنشاء الحكومات ؟
يفترض جان جاك روسو أن الخلائق اجتمعت يوماً للتشاور
في الصورة التي تصان بها الحياة الاجتماعية ، وأن كل فرد تنازل
عن جزء من حريته ، ليتكون من تلك الأجزاء قوة تحمي
المجتمع من عدوان الأقوياء على الضعفاء
وقد آن أن نسترد ما تركنا من حريتنا باسم صيانة المجتمع .
آن أن نكرم الإنسانية بأن نُسأل أمام الضمائر لا أمام القوانين ،
فإن من العار على الإنسانية أن يطول احتياج بنينا إلى حكام
يصدونهم عن تقارض الظلم والاضطهاد
كل أمة تحتاج إلى وزارة اسمها وزارة العدل ، فامعنى ذلك ؟
معناه أن الأمم لم تصل إلى الرق الصحيح ، ومعناه أن بني الناس
بعضهم على بعض خطر يرتقب في كل حين

لا مانع من أن تكون في الدنيا محاكم ، على شرط
أن لا يُحتكم إليها إلا في القضايا التي تحتاج إلى اجتهاد القضاة ،
أما القضايا التي يقال فيها إن الحلال بين والحرام بين فاحتياج
الإنسانية فيها إلى القضاة ضرب من الإسفاف
البشال الصحيح للأخلاق السليمة هو أن تعرف مالك
وما عليك ، فتحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وتبغض لأخيك
ما تبغض لنفسك ، ويكون رأيك في تقدير المشكلات الاجتماعية
هو الميزان

قال فلاسفة العرب : « الإنسان مدني بالطبع » ، ومعنى
هذا أنه يكره التوحد الموحش ، ويميل إلى الوداد والإخاء ،
وكذلك كان حاله بالفعل ، لولا بدوات تده إلى عهود الوحشية
من حين إلى أحيان

ويقول التاريخ الاجتماعي : إن الدنيا في عهود الظلمات كان
فيها شعوب يُستأجرون كما يستأجر الفتاك . وقد انقرض هذا
الصنف من الناس أو كاد . وتلك بداية لطيفة ، فقد نستغني يوماً

أيهون منبر كلية الآداب إلى الحد الذي يسمح بأن يعلوه
خطيب لا يعرف الأوليات من قواعد اللغة العربية ؟
اتقوا الله يا فاس في منبر كلية الآداب !
ومن ذلك الخطيب ؟

سأذكر اسمه يوم يغير ما بنفسه بعد قراءة هذا الدرس
سأذكر اسمه يوم يعرف أن المناظر لا يكتبني بالقصاصات
من المجلات

إن خطبة عميد كلية الآداب لم ترد عن أربعة أسطر ،
وهو مع ذلك تلاها تلاوة ليأمن الخطأ في الإعراب ، أما فلان
فقد فعل بنفسه ما لا يفعل الأعداء

ثم ماذا ؟ ثم أعلن معالي الأستاذ عبد الحميد عبد الحق
أن رأي كوزير أن يستزيد الحكومة من المسئوليات . فقلت :
ومن واجب الشعب أن يتحمل جميع المسئوليات

ثم ؟ ثم أسجل خطبتي في « الرسالة » لتُسجّل في ضمير
الزمان ، وليعرف من لا يعرف أن المصريين جذوات فكرية
مقبوسة من نار الخلود .

أيها السادة :

أحييكم باسم الفكر والرأى ، ثم أشكر من تفضلوا فدعوني
للإشتراك في هذه المناظرة ، فقد هيأوا فرصة جديدة لتوضيح
نظرية نفر منها الجمهور حين عرضتها في بعض الجرائد والمجلات ،
وهي النظرية التي تقول بأن الفرد هو الحجر الأول في بناء
المجتمع ، وبأن الشعب هو المسئول في جميع الأحوال عما يتعرض له
من متاعب وصعاب

وسأعرض تلك النظرية في هذا المساء بأسلوب جديد ،
راجياً أن تراعوا أننا في رحاب كلية الآداب ، فلا يشور من
تعودوا الثورة على الحق في المناظرات الماضية ، وراجياً أن تذكروا
أن ما تضيق به صدوركم اليوم قد يصبح من المألوفات بعد حين
أما بعد فن المسئول عن الإصلاح الاجتماعي : الشعب
أم الحكومة ؟

في شرح هذه المعضلة أقول :
أنا أقبل إلقاء جميع المسئوليات على الحكومة ، إذا صح

عن المحاكم ، وقد يصبح كل فرد وهو مسئول أمام الضمير
لا أمام القانون

أليس من العيب على الإنسانية أن تحتاج إلى جيوش من
القضاة والمحامين في شؤون يحكم فيها الضمير قبل أن يحكم القضاء ؟
في بضع مثين من السنين يتحول بعض الحجر إلى مرمر ،
وقد صرت ألوف وألوف من السنين ولم يتحول الإنسان إلى ملك
فبأى وجه تلقى الإنسانية بارئها يوم يقوم الحساب ؟
الحكمة اليونانية تقول : اعرف نفسك بنفسك
والحكمة الإسلامية تقول : الإثم ما حاك في صدرك

ونحن مع هذا وذلك لا نسير في الطريق إلا معتمدين على
أسندة من رعاية الحكومات ... كأننا خلائق نجو في فجر التاريخ
أقدم أمة أقيمت فيها حكومة هي الأمة المصرية ، وكان ذلك
من أبواب المجد ، يوم كان النظام حلما يداعب خيال الإنسانية
وستكون مصر أول أمة تعيش بلا حكومة ، وسيكون ذلك
أعظم آيات المجد ، لأنه الشاهد على السمو الذي تنفى به الحكماء ،
جيلاً بعد جيل

نحن سبقنا جميع الشعوب إلى إقامة النظام الحكوى ، يوم
كان أسلح أداة لكبح الطغيان الفردى والاجتماعى
وسنسبق جميع الشعوب إلى الاستغناء عن النظام الحكوى ،
لأنه يطمئن في قدرة الإنسانية على مغالبة الأهواء

وماضينا في التاريخ القديم يطمعنا في تحقيق هذا الأمل
الجميل ، فنحن الذين أقمنا النظام الشمسى قبل أن تعرفه أمم
الشرق والغرب . ونحن الذين غزونا بالروح أمما لم تكن تغزى
بغير السيف . وقد وصلت فنون أجدادنا إلى أمريكا قبل أن
يكشفها كولومبوس بأزمان وأزمان ... ألم تسمعوا أن أمريكا
وجدت فيها آثارها ملامح من الفنون المصرية ؟

وتحرس بنا الأوروبيون متجمعين عشرات السنين لهدم
الحروب الصليبية ، فرددناهم على أعقابهم بعد أن زدناهم بأصول
المدنية الشرقية ، وهى أساس المدنية الغربية

ونحن كنا الحصون التى صدت غارات المغول ، ومن قبل ذلك
بقرون أوحينا إلى الإسكندر الأكبر أن يتجشم متاعب السفر
إلى الواحات لزور معبداً يجمع بين الرحوت والجبروت ، وهو

معند آمون ، آمون الذى دخل اسمه جميع اللغات فصار « آمين »
التي تقال عقب الدعاء

أرضنا هى الأرض ، وسماؤنا هى السماء ، ومجدنا هو المجد ،
وخلودنا هو الخلود

فما الذى يمنع من أن نكون أول أمة نتمتع بالقوة الذاتية ؟
ما الذى يمنع من أن نكون حكام أنفسنا في جميع الشؤون ؟
وما الذى يمنع من أن نسبق جميع الأمم إلى فهم الغاية
الصحيحة من قوة الروحانية ؟

لكل أمة عذر في التخلف ، ولا عذر لمصر في التخلف ،
وهى أقدم حجاز بين الحق والباطل والهدى والضلال

وتاريخنا الحديث لا يقل عظمتاً عن تاريخنا القديم ، فقد
حيكت حولنا الدسائس الدولية بالآلوف ، وكانت بلادنا مصطراً
لأشتات من الجيوش ، فهل غلبنا في الميادين الفكرية ، حين
غلبنا في الميادين الحربية ؟

أين الدولة التى تستطيع أن تزعم أنها نقلت القلب المصرى
من مكان إلى مكان ؟

أين الدولة التى استطاعت أن تصد الفكر المصرى عن
التغلغل في آفاق الشرق ؟

لبلادنا خصائص أصيلة أيسرها القدرة على قهر عوادي
الاضمحلال ، وكيف تضحل أرض نجد فيها الماء في كل بقعة ،
والله جعل من الماء كل شيء حي ؟

أول كفر عرفته الخلائق هو كفر المصريين ، وأول
إيمان عرفته الخلائق هو إيمان المصريين ، وأشهر الأفراح أفراح
المصريين ، وأشهر الأحزان أحزان المصريين

هل عرف تاريخ الجاهلية أعظم من العابد المصرية ؟
وهل عرف التاريخ الإسلامى أروع من المساجد المصرية ؟
وهل يوجد للفلاح المصرى نظير في أى أرض ؟

وهل يوجد ماء أعذب من ماء النيل ؟
وهل عرفت العظمة في المباني قبل أن تُعرف في هذه البلاد ؟
وهل يوجد في الدنيا ناس يفوقون المصريين في حلاوة

الشبائل ولطافة الطباع ؟

لم يبق إلا أن نتفرد بالابتكار الأخير ، وهو الابتكار الذى

وهذا المستقبل لن يكون بعيداً كما نخوف ، قالوا
تتعلق بأن ضمير الأمة سيستيقظ بعد طول السبات ، ولعله
استيقظ بالفعل . ألا ترون أن الأمة تنسأ إلى أمور كانت قبل
قبل اليوم من تهويل الخيال ؟

قبل أن تشب الحرب ويغلو الورق كان متوسط ما تخرج
المطابع المصرية في كل يوم اثني عشر مجلداً ، وكان لصحافتنا
المقام الثالث بعد الصحافة الإنجليزية والأمريكية ، وكنا أول
أمم الشرق في إحياء الذخائر العربية والإسلامية ، وسيكون لنا
بعد الحرب ميادين يمتزجها العقل والبيان

ومعنى هذا أن بقطة الذكاء المصري بقطة حقيقية ، وأن
تحقيقاتنا في سموات الفكر والرأى لم تكن أضغاث أحلام ،
فكيف تستبعدون أن يستيقظ الضمير المصري فيغنى الحكومة
عن التعب في مداواة الأمراض الفردية والاجتماعية ؟
إن تعادل الضمير والذكاء في مصر فتصبح الأمة المصرية
أمة نموذجية ، وستبدع في الأدب النفس آيات لا نظائر لها
ولا أمثال

إن أفضل الفروض في وصف الصلة بين الحاكم والمحكومين
هي أن تشبهه بالصلة بين الآباء والأبناء ، فهل سمعتم أن أباً يحب
أن يكون ابنه عالة عليه في جميع الشؤون ؟

ونحن اليوم في مطلع حياة جديدة ، ولا بد لنا من رياضة
أنفسنا على الاضطلاع بحمل جميع الأعباء

وسنجاهد ونجاهد إلى أن تشعر الحكومة أنها تعيش
في أمة مثالية لا تحتاج إلى حكام في أى ميدان

سنجاهد ونجاهد إلى أن تفلح الحاكم بفضل اعتماد الشعب
على الاحتكام إلى الضمائر والقلوب

لن يطول صبر الإنسانية على هذه الحياة الوضيعة ، وهي
الحياة التي لا يترجر فيها منجر إلا خوفاً من سطوة القضاء

إن الاستقامة السليمة هي التي تنبث من النفس ، كما يستقيم
العود حين تكتمل قواه ، أما الاستقامة التي توجهها قوى خارجية
فهي استقامة العود الذي يُستر ضعفه بأسنده من الجريد ، وهذا
حال الأخلاق التي لا تستقيم إلا بأسنده من القانون

إن الجوارح الروحية تمطلت بسبب الاعتماد على الحكومة

عجز عنه من اهتموا إلى البخار والكهرباء ، وهذا الابتكار هو
الكشف عن الجوانب المستورة من الأرواح والقلوب ، الجوانب
النقية ، ففي قلب كل رجل غابة عذراء لا تفرّد فوق أدواحها
غير بلابل الطهر والصفاء

إجموعكم ، واستمعينوا بفكريكم ، لتكتشفوا الراحة
المجهولة في الضمائر المصرية ، فقلبي يحدني بأن في هذا الوادى
سراير مطوية تفوق الأحجار التي يشق في البحث عنها علماء
الحفريات !

أنفقوا في البحث عن الضمائر الحية معشار ما تنفقون في
البحث عن الأحجار الميتة ، واعلموا أن مصر لن تموت ، لأنها
مؤيدة بروح الحق الذي لا يموت

أين مصر التي عرفناها أو جهلناها ، وأين مكانها الأصيل
في تاريخ الوجود ؟

ستكون أول أمة تعيش بلا حكومة ، لتقيم البرهان على
أنها فوق الشبهات والأضاليل

قد تقولون : إن واقع الحياة لا يعرف هذا الخيال ...
وأقول : إن الأمر في هذه الأيام يؤيد ما تقولون ، فلو عاشت
الأمة بلا حكومة أسبوعاً أو أسبوعين لانتشرت الفوضى وعم
الاضطراب وشاع الفساد

ولكنني مع هذا أجزم بأن الحكومة لا تستطيع بأى حال
رعاية أمة فقيرة في نواحي التماسك الذاتي والاجتماعي ، فنحذو
الأمم للشرائع والقوانين لا يكون خضوعاً شريفاً إلا إن صدر
عن إرادة ذاتية مردّها إلى أدب الأحرار لا أدب العبيد

ونحن في مصر نفهم هذه المعاني ، فوزير المعارف يعتمد على
ضمائر المدرسين ، ووزير العدل يعتمد على إيمان الناس بأدب
المعاملات ، وكذلك يقال في الأمور التي يعالجها سائر الوزراء

قد سمعتم أو قرأتم أن وزارة الوقاية ووزارة وقاية تنهض مهمتها
بإنهاء الحرب ، فما المستقبل الذي ينتظر وزارة الشؤون الاجتماعية ؟
أنا أقدر أن مهمتها ستنتهي بعد أمدٍ قريب ، يوم يفهم
الشعب واجبه في الإصلاح الاجتماعي ، ويوم يدرك أن احتياجه
إلى عون الحكومة في تلك الشؤون ضرب من الفقر في الروح
والوجدان

وصلوا إلى شيء ، في بلد يرى الوظيفة كل شيء ؟
كل ما رأيناه من هذه النواحي أهون من الناحية التي
تساق في مناظرة هذا المساء ، فإن ناساً يرجون أن تنوب
الحكومة عن الأمة في الإصلاح الاجتماعي ، وقد يرجون غداً
أو بعد غد أن توزع الإصلاحات الاجتماعية والفردية في بطاقات ؛
وقد يرجون أيضاً أن تنوب الحكومة عنهم في اختيار ألوان
الطعام والشراب !

الأساس الذي أراه لبناء المستقبل أن تكون روح الشعب
وروح الحكومة ممثلة في كل فرد ، فيكون الرجل حاكماً ومحكوماً
في آن ، حاكماً لهواه ومحكوماً لنهائه ، ثم تتلاقى قوى الأفراد
كما تتلاقى القطرات الطاهرة من الغيوث فتخلق نهراً في مثل
عظمة النيل

أنا أنتظر اليوم الذي يقال فيه على سبيل التفكه بحوادث
التاريخ : كان في الدنيا حكومات وبرلمانات ، وكانت الدنيا
في بعض العهود ميادين قتال بين الآراء والأهواء
فإن لم نر ذلك اليوم ، وهو في رأي قريب ، فلنخلقه في
صدورنا ، ولنسكن رجالاً يستفتون ضمائرهم في جميع الشؤون ،
ولا يخافون الناس ، لأن النزاهة الروحية تخلق الأمان
والاطمئنان ، ولأن الصدق يحمي صاحبه من عدوان الباغين
والظالمين .

وسبحان من لو شاء لحقق هذا الرجاء .

زكي مبارك

حكم في اللجنة العسكرية ٣٤ أبو قرفاس سنة ١٩٤٣ بجلية ٢٢/٢
سنة ١٩٤٣ بحبس وبيع ملك ميخائيل كاتب بشركة الغاز المصرية
ثلاثة شهور مع الشغل وغرامة ١٠٠ جنيه وغلق الحبل ثلاثة أيام ليحه
كرويين بسر أزيد من التسيرة

حكم في اللجنة رقم ١١٦٢ عسكرية حلوان سنة ١٩٤٢ بحبس
عبد الفتاح علفاية ثلاثة شهور مع الشغل والمصادرة والنشر والتعليق والفق
ليعه (اللحم) بأزيد من السر المحدد

حكم في القضية ١٠١ سنة ١٩٤٣ ضد أحمد صبر فخرى عبد الموجود
غزالي بحبس ثلاثة شهور مع الشغل وغرامة ١٠٠ جنيه ونشر الحكم
وتعليقه وإغلاق الحبل ثلاثة أيام ومصادرة القماش موضوع الجريمة لامتناعه
عن بيع قماش بالسر المحدد

في مختلف الشؤون ، وإن المواهب النفسية تهدمت بسبب
التفريط في رياضتها على النفاذ والمضاء

الأمم الضعيفة تكلل أمورها إلى الحكومات لتستريح من
الجهاد ، أما الأمم القوية فتنهض بأحمالها الثقيل لتتشرف بالجهاد
وآفة الاعتماد على الحكومة آفة مخوفة على الأمة المصرية ،
ويجب النص على هذه الآفة بذكر بعض الشواهد ، عسانا نزهد
فيما استمرأناه من التواكل البغيض

التعليم كله ملقى على كاهل الحكومة ، وما فكر فرد
أو جماعة في إنشاء مدرسة إلا على نية التبعية لوزارة المعارف ،
بأى صورة من صور التبعية

وقد نهضت الأمة يوماً فأنشأت الجامعة ، ولكن النهوض
ثقل عليها فأسلمتها إلى الحكومة !

وأنشأت الجمعية الخيرية الإسلامية بضع مدارس ، ثم
أسلمتها إلى الحكومة

ومنذ أعوام تعرضت مدرسة الأقباط بالقاهرة لتعاب مالية ،
نغلها أعيان الأقباط ولم ينجدها غير الحكومة

فأهذا الفقر المدقع في المزائم والنفوس ؟
أتكون أحوال التعليم كهذه الأحوال في البلاد الإنجليزية
والأمريكية ؟

وكيف والتعليم في تلك البلاد ترجع أكثر شؤونهم إلى
هيئات مستقلة عن الحكومة كل الاستقلال أو بعض الاستقلال ؟

واعتمادنا على الحكومة ظهر بصورة بشعة يوم خيف على
« بنك مصر » من زعازع الحرب ، فالحكومة هي التي تقدمت
لحماية البنك ، وبذلك ضاعت فرصة على أغنياء الأمة ،
وأى فرصة ؟

لقد كان في مقدور الأغنياء أن يتعاونوا على رعاية تلك
المؤسسة القومية ، وهي رعاية مضمونة الربح ، وكان من المؤكد
أن ندر عليهم الخيرات في أعوام الحرب ، ولكنهم تهاونوا
تهاون العاجزين عن إدراك ما ينتظر من النافع ، وتركوا
الحكومة تدبر الأمر كما تريد

وآفة الاعتماد على الحكومة زلزلت الثقة بالكفاية الفردية ،
وهل يتهالك التعللون على وظائف الحكومة إلا ليقال إنهم